المكوّنات البصريّة

(دراسة في لوحات مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة)

مرضيه عليبور

ترجمة: محمد حسين حكمت

marziealipoor@yahoo.com

رابط البحث: https://doi.org/10.62745/muhaqqiq.v10i26.378

الملخص

يُعَدُّ مسجد ـ أو مقام ـ صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة الحلّة أحد أهمّ مقامات الإمام، ويتناول هذا البحثُ عناصر هيكليّة هذا المكان المقدّس فيعدد من اللوحات الفنية التي خصَّتْ مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلة؛ للوصول إلى فهم أدقّ وأشمل لعمارة هذا البناء.

وقد أثبتنا ست صور متنوعة للوحات فنية رسمها نصوح أفندي المطراقجي، التي كانت نتيجة مشاهداته المباشرة، وفيها الزخارف الواقعيّة الموجودة في العمارة، التي أسهمت في تصميم هذه اللوحات.

الكلمان المفتاحية:

مقام، صاحب الزمان، الحلة، نصوح أفندي المطراقجي، اللوحات الفنية.

The Visual Elements of the Artwork Depicting the Maqam of Sahib al-Zaman in Hilla

Marziyeh Alipour
The Institute for Research on Islamic Culture and Art
marziealipoor@yahoo.com

Abstract

The mosque or shrine of Sahib al-Zaman in the city of Hilla is considered one of the most important sites associated with this revered Imam. This study explores the architectural components of this sacred location by identifying several artistic depictions specifically dedicated to the Maqam of Sahib al-Zaman in Hilla, aiming to reach a more precise and comprehensive understanding of the structure's architecture.

The research presents six different images of artistic illustrations created by Nasuh Effendi al-Matrakchi, based on his direct observations. These artworks include realistic ornamentations that contributed to their design.

Keywords: Maqam, Sahib al-Zaman, Hilla, Nasuh Effendi al-Matrakchi, Artistic Illustrations.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدّمة:

في كلّ عصرٍ من العصور هناك عدد من الأوقات والأمكنة التي تحظى بمكانةٍ خاصّة لدى الإنسان المتديّن، خصوصًا عندما يكون أحد الشخصيّات المقدّسة موجودًا في تلك الأوقات أو الأمكنة، فينال ذلك المكان شرفًا وفضيلةً وبركة لم تكن له من قبل، بل هي بسبب ذلك الوجود.

ومن هنا وجب احترام ذلك المكان، ومن أشكال ذلك الاحترام هو زيارة ذلك المقام[١]، وهذا الأمر يوجب الراحة النفسية المستمدّة من هذه الأجواء المعنويّة وتحقيق الاستقرار والنقاء الروحي بأداء مراسيم الزيارة. وهكذا تنشأ العلاقة المتينة بين هذا المكان المقدّس وبين الدين وطقوسه.

ويرى الباحث المعاصر في الشؤون الدينيّة (ميرچا إلياده) أَنَّ الأمكنة بالنسبة للإنسان المتديّن ليست أمورًا متشابهة ومتجانسة، فهي تنقسم إلى أماكن مقدّسة وأُخرى غير مقدّسة.

وهذا الأمر تؤكّده الأديان أيضًا، فقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢]، وهذا الخطاب يدلّ على وجود الأماكن المقدّسة وأهمّيّتها[٣].

وقد سُمّيت الأماكن المقدّسة في أرجاء العالم المختلفة بأسماءٍ مختلفة، فهي معابد أو كنائس أو عتبات، وصارت زيارتها أمرًا متعارفًا ومرغوبًا فيه. ومن هذه الأماكن المقدّسة يمكن الإشارة إلى (المقامات).

وأصل كلمة (المقام) في اللغة العربيّة يُطلق على (المكان الذي يتوقّف الإنسان ويقيم فيه). وجاء في كتاب المنجد أَنَّ (المَقام) هو مكان التوقّف، وجاء المقام بمعنى المنزلة أيضًا، وجمعه مقامات. و(المُقام) بمعنى الإقامة وزمان ومكان هذا المصدر[٤].

وجاءت هذه الكلمة في القرآن بمعنى التوقّف قال تعالى ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗا...﴾[٥]، والمراد من المقام في هذه الآية هي الصخرة التي وقف عليها إبراهيم عليه السلام كي يبني بيت الله الحرام في مكّة المكرّمة.

ويأتي (المقام) أيضًا بمعنى المكان الذي كان الشخص المنسوب إليه يمارس العبادة فيه[٦].

وتمتاز المقامات ببنائها البسيط واختلافها في المساحة والسعة. وبعض المقامات كمقام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في كربلاء له بناية مستقلّة، في حين يكون بعضها الآخر جزءً من عمارةٍ أكبر[٧].

ومن الأعمال التي يجب على الشيعة القيام بها هو تجليل واحترام الأماكن المنسوبة إلى الوجود المقدّس للإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وتكريم الأماكن التي ازدانت بقدومه إليها، والمواضع التي رآه بعض الصلحاء فيها، أو جاء في الروايات أنّه توقّف في تلك الأماكن.

ويوجد في بعض الدول الإسلاميّة ـ والمدن التي يسكنها الشيعة على وجه الخصوص ـ أماكن ومساجد اشتهرت لدى الناس والشيعة باعتبارها مقامات لإمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف. ومن هذه المقامات يمكن الإشارة إلى مقام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في مسجد الكوفة، ومسجد صعصعة بن صوحان، ومسجد (الشيخ صبور) في قرية (الزنج) قرب المنامة عاصمة البحرين (موقع قرية كرزكان)، ومسجد جمكران، ومسجد (أُمّ عكيظ) في منطقة النعمانيّة من توابع مدينة واسط، وسرداب الغيبة، ومسجد السهلة، ومسجد صاحب الزمان في الحلّة، وبقعة إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة شوشتر.

ولمّا كان الرسم والنقش باعتباره واحدًا من المظاهر البديعة للفنّ الإسلامي يعتمد في مسيرة تطوّره المعنوي على القيم السائدة في المجتمع، فقد ساهم في

تجلّياتـه الظاهريّـة وبالاعتـماد على الهندسـة المعماريّة الإسـلاميّة في خلق أجواء وفضاءات متناسبة مع هذه المعاني.

من هنا، ونظرًا لكون مسجد ـ أو مقام ـ صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة الحلّة يُعَـدُّ أحد أهمّ مقامات هذا الإمام، فإنّ هذا التحقيق يعمل على دراسـة عناصر هيكليّـة هـذا المـكان المقدّس في لوحـة (مقام صاحـب الزمـان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة)، وذلك لتشخيص العوامل المؤثّرة في تكوين الماهيّة الظاهريّة فيه، والوصول من خلال ذلك إلى فهم أدقّ وأشمل لعمارة هذا البناء.

وبنـاءً عـلى فرضيّـة أَنَّ العديد من الرسّـامين يسـتفيدون في تصميم أعمالهم بصـورة متعارفـة ومتناسـبة مع موضـوع آثارهم مـن الفضـاءات والزخارف الواقعيّة والموضوعيّة الموجودة في العمارة؛ فإنّ هذا التحقيق يسعى للإجابة عن السـؤال الآتي: ما هي أهمّ الفضاءات والزخـارف الواقعيّة الموجودة في العمارة والتي ساهمت في تصميم هذه اللوحة ؟

الحلّة:

نظـرًا لكثـرة الشـيعة في مدينـة الحلّة؛ فقـد أُطلق عليهـا أيضًا اسـم الكوفة الصغيرة[٨].

وجـاء في الأَخبـار أَنَّ الإمـام عليًـا عليه السلام عند مسـيره مـن الكوفـة إلى صفّين وقـف على تـلٍّ ضخم من تـراب بابل وهو ثمّ أومـأ إلى أَجَمَةٍ ما بـين بابل والتلّ وقـال: «مدينـة وأيّ مدينة !» فقـال له أحد أصحابه المقرّبـين الأصبغ بن نباتة: «يـا مولاي، أراك تذكر مدينة، أكان فيها مدينة وانْمَحَتْ آثارها ؟» فقال الإمام علي عليه السلام: «لا، ولكن ستكون هنا مدينة يقال لها: الحلّة السيفيّة، يمدّنها رجلٌ من بني أسد، يظهر بها قومٌ أخيار لو أقسم أحدهم على الله لأبرّ قَسَمَه»[٩].

تقع الحلّة في الجنوب الشرقي من بغداد، وكانت من أجمل مدن العراق في القرنين الخامس والسادس الهجريّين. وبُنيت هذه المدينة في القرن الخامس الهجري على يد سيف الدولة الأسدي رابع الأُمراء المزيديّين، حيث بنى فيها قصورًا ومنازل جميلة. وبعد ازدهارها وانتشار العمران فيها انتقل إليها الكثير من التجّار والعلماء والشعراء حتّى صارت الحلّة بعد فترةٍ قصيرة مركزًا للحضارة والثقافة الإسلاميّة[١٠].

وفي القرن السابع أخذت مكان النجف في احتوائها على أنشط الحوزات العلميّة، وكونها مقرًّا لأبرز علماء الشيعة وفقهائهم، ومحلًّا لتدريسهم[١١].

استمرّت الحلّة منذ أوائل القرن السادس إلى العاشر الهجريّين على هذه الصورة إلى أن انتقل مركز العلم والاجتهاد ومهد الحوزة العلميّة إلى كربلاء في القرن العاشر الهجري، ثمّ انتقل إلى النجف فعادت مركزًا للحوزة العلميّة الشيعيّة العظيمة.

وبسبب دراية العلماء لم يصب مدينة الحلّة أذىً نتيجة هجوم المغول على العالم الإسلامي وعلى بغداد ممّا أَدَّى إلى انقراض الخلافة العبّاسيّة في سنة ٦٥٦ الهجريّة، بل صارت لهم علاقة مع جهاز الخلافة ضمنوا من خلالها أمنهم وأمن أهالي المدينة[١٢].

كما أدّى اضطراب الحالة الأمنيّة في بغداد نتيجة ضعف وأُفول وتزلزل ـ ومن ثمّ سقوط ـ الخلافة العبّاسيّة إلى هجرة طلبة العلم إلى الحلّة، وتمّ استكمال الأعمال التي بدأها ابن إدريس (ت ٥٩٨ هـ) على يد المحقّق الحلّي (ت ٦٧٦ هـ) ثمّ وصلت إلى أوج ازدهارها بخدمات ونشاطات العلاّمة الحلّي (ت ٧٢٦ هـ).

وفي النصف الأوّل من القرن العاشر الهجري دخلت الحلّة تحت سلطة الصفويّين، حيث زارها الشاه إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤ هجريّة في طريق سفره إلى العتبات المقدّسة[١٣].

وهكـذا بقيت الحلّة ضمن حدود الدولة الصفويّة حتّى سـنة ٩٤١ الهجريّة حيث وقعت آنذاك تحت سـيطرة السلطان العثماني سليمان القانوني كباقي المدن العراقيّة[١٤].

مسجد ـ أو مقام ـ إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة:

يقع هذا المقام في مركز مدينة الحلّة، في منطقة تعرف باسم السنيّة، في مدخل الجانب الأيمن من سـوق الصفّارين (الصفافير)، وبالدقّة خلف مسـجد الحلّة الكبير.

جـاء في المجلّـد الثاني من كتاب (العبقريّ الحِسـان) نقلًا عـن العالم الربّاني السيّد علي أكبر الموسوي الخوئي رحمه الله أنّه قال:

في إحـدى المـرّات سـافرت مـن النجـف الأشرف إلى مدينة الحلّة السـيفيّة لأداء بعض الأعمال، وعند مروري بسوق المدينة وقعت عيناي على ما يشبه قبّة مسجد وفي أعلى المدخل علّقت زيارة قصيرة لصاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف وكتبت على الباب عبارة (هذا مقام صاحب الزمان).

ويتّفق أهل الحلّة بالقول إنّ هذا المكان كان بيتًا لعالمٍ من أهل التقوى يدعى الشـيخ علي الحـلّي، وكان هذا العالم دائـم الانتظار لظهـور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، وكان دائم العتاب له ويخاطبه متسائلًا لماذا لا تظهر مع وجود هذا العدد الكبير من المخلصين لك في مدن العالم وأقطاره.

وفي أحـد الأيّام ذهب الشـيخ علي إلى الصحراء وبـدأ يخاطب الإمام بنفس الخطاب المعتاد، وفجأةً شـاهد الشـيخ عـلي إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، فقـال له الإمام: يـا شـيخ، لا تعاتبنـي وتتكلّـم معـي هكذا! لـو كان هنـاك ٣١٣ شـخص من الأصحاب موجودين لظهرت. إنّ مدينة الحلّة هذه التي تتحدّث عنها لا يوجد فيها مَن يحبّني بإخلاص سواك أنت وفلان القصّاب. والآن إذا شئت أن تتّضح

لـك حقيقـة الواقع فاذهـب إلى المخلصين الذيـن تعرفهم وادعوهـم أن يأتوا إلى منزلـك ليلـة الجمعـة، ورتّب مجلسًـا في باحـة المنزل، وادعـو القصاب أن يـأتي أيضًا وهيّئ اثنين من الخِراف في سـطح المنـزل، وانتظر مجيئي كي أحضر وأُريـك حقيقـة الأمـر.

وحلّ اليوم الموعود وجاء القصّاب مع أربعين نفرًا ممّن انتخبهم الشـيخ إلى بيت الشـيخ علي، وبعد وصول الإمام بدقائق قليلة جاء النداء من سطح البيت يدعـو القصّـاب للصعود إليه، فقام وصعد إلى السـطح تلبيةً لأمر الإمام، فقال له الإمام: إذبح أحد هذين الخروفين قرب الميزاب بحيث يسيل دمه من الدرج ويجـري في صحن البيت. فلمّا سـال الدم في الصحن ظنّ الحـاضرون أَنَّ الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف قد ذبح الرجل القصّاب. وبعد قليل جاء النداء من السـطح يدعو الشـيخ علي الحلّي للصعود إلى سطح الدار، وهذه المرّة أيضًا تمّ بأمر الإمام ذبح الخـروف الثاني بنفس الطريقـة. وهنا تبدّلت ظنون الأربعين نفرًا الحاضرين إلى يقـين بـأَنَّ الإمام عليه السلام قد قتل القصّاب والشـيخ عـلي وأَنَّ نوبـة كلّ واحدٍ منهم ستحلّ قريبًا ويكون ثمن ملاقاتهم لإمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف هو انتهاء حياتهم، وهكذا لم يتردّدوا في الفرار من منزل الشيخ علي.

هنا قال الإمام للشيخ علي: اذهب وقل لهم أن يأتوا للقائي. فلمّا نزل الشيخ علي إلى الساحة لم يجد حتّى نفرًا واحدًا من أُولئك الذين انتخبهم.

ثمّ قال الإمام عجل الله تعالى فرجه الشريف: يا شيخ، لا تعاتبني بعد الآن هذا العتاب الشديد، فهذه مدينة الحلّة التي كنت تقول إنّ أكثر من ألف نفر من أنصارنا موجودون في هذه المدينة فقط، فقِس بقيّة المدن على هذا المنوال أيضًا.

قال الإمام هذه العبارة الأخيرة وغاب عن أنظار هذين الشخصين.

وبعـد هـذه الحادثة عمّر الشـيخ عـلي الحلّي بيتـه وجعله مقامًا أسـماه (مقام صاحب الزمان)[١٥].

تاريخ مسجد ـ أو مقام ـ صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف :

ليس من المعروف ما هو التاريخ الدقيق لبناء هذا المقام الذي يقع داخل أحد الأسواق القديمة في مركز مدينة الحلّة، ولكنّ الذي تذكره بعض المصادر التاريخيّة يفيد أنَّ مقام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف كان موجودًا على الأقلّ ـ منذ النصف الأوّل من القرن السابع الهجري؛ لأنَّ نجيب الدين بن نما الحلّي بنى في السنة ٦٣٦ هـ غرفًا للتدريس إلى جانب هذا المقام المنسوب إلى صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف ، وأسكن مجموعةً من الفقهاء في هذه الغُرَف [١٦].

كما أنَّ عددًا من النسخ الخطّيّة قد كُتبت أو استُنسخت في مقام ـ أو مدرسة ـ صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة [١٧] في الفترة الممتدّة بين القرنين السابع والعاشر الهجريّين، ممّا يشير إلى أهمّيّة هذا المقام والمدرسة الدينيّة المجاورة له ومكانتهما العلميّة، ومدى اهتمام العلماء بهذا المقام وزيارته وعنايتهم بعمارته وتدريسهم فيه.

ومن المخطوطات التي ورد فيها تاريخ مقام الحلّة ما يلي :

أ ـ النسخة الخطّيّة للشيخ ابن هيكل في سنة ٦٣٦ هـ ، وقد أشار لها المحقّق الكبير السيّد محمّد صادق بحر العلوم في تصحيحه لكتاب لؤلؤة البحرين بقوله: شاهدت هذه العبارة بخطّ ابن هيكل الحلّي (تلميذ ابن فهد الحلّي) في حوادث سنة ٦٣٦ هـ يقول فيها إنّ الشيخ الفقيه والعالم نجيب الدين محمّد بن جعفر بن هبة الله بن نما الحلّي قد عمّر البيوت وحلقات الدرس في جوار المكان المنسوب إلى صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة السيفيّة وأسكن فيها مجموعةً من الفقهاء.

ب ـ مخطوطة نهج البلاغة، استنسخها حسين بن أردشير الطبري الأندرأوذي في سنة ٦٧٧ هـ في الحلّة السيفيّة داخل مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف ، وقد صرّح بذلك أيضًا عدد من العلماء.

ج ـ النسخة الخطّيّة لكتاب الدرّة النضيدة في شرح الأبحاث المفيدة كتبها في بداية القرن الثامن الهجري في جوار مقام إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة السيفيّة[١٨].

أمّا باقي النسخ التي تمّت كتابتها في هذا المقام أو المدرسة فهي:

ـ مخطوطة تحرير الأحكام الشرعيّة على مذهب الإماميّة، من تأليف جمال الدين أبي منصور الحسن بن يوسف بن المطهّر الأسدي، حيث استنسخها محمود بن محمّد بن بدر سنة ٧٢٣ هـ في مقام الإمام.

ـ المخطوطة قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام، أحد مصنّفات العلاّمة الحلّي، وقد استنسخها جعفر بن محمّد العراقي وأخوه حسين بن محمّد العراقي في سنة ٧٧٦ هـ في مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

ـ مخطوطة المختصر النافع، وقد تمّت كتابتها سنة ٩٥٧ هـ في مدرسة صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

كما أنَّ ابن بطوطة الرحّالة المسلم الشهير قد أشار إلى مراسم انتظار خروج إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة في سنة ٧٢٧ الهجريّة، وقال إنّ الشيعة في القرن الثامن الهجري كانوا يقيمون هذه المراسم كلّ يوم في مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف. وشرح تفاصيل هذه المراسم في رحلته[١٩].

كما أنَّ الشاه إسماعيل الصفوي والسلطان سليمان العثماني كليهما قد توجّها من بواية مدينة الحلّة لزيارة هذا المقام مشيًا على أقدامهما، ممّا يدلّ على أهمّيّة هذا المزار واهتمام العظماء والملوك واحترامهم لهذا المقام[٢٠].

لوحة (مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة الحلّة) الموجودة في مخطوطة بيان منازل سفر العراقَين:

مخطوطة (بيان المنازل) هي من تأليف نصوح أفندي (المطراقچي). وهي مخطوطة ألّفها حول حملة السلطان العثماني سليمان القانوني بين سنتَي ٩٤٠ و ٩٤٢ للهجرة على القسم الغربي من إيران (أذربايجان وعراق العجم) وعلى العراق.

وقد رسم المطراقچي ـ الذي كان مرافقًا للسلطان في هذه الحملة ـ ما شاهده من تصميمات المدن التي نزلوا بها وذكر ملاحظاته وتعليقاته عليها، وبذل جهده في الفرص التي سنحت له أثناء الحملة وفي السنتين اللتين تلتاها في رسم وتلوين الصور وتكميل الكتاب.

وجعل المطراقچي هذه النسخة على شكل قسم من كتابه (سليمان نامة) الذي أرّخ فيه لحوادث عصر سليمان القانوني. وهذا الكتاب في الحقيقة هو حصيلة عمل المصنّف في أربع رسائل، ويحتمل أنّه قدّمه إلى البلاط في سنة ٩٤٤ هجريّة.

ونسخة (بيان المنازل) الموجودة في المكتبة المركزيّة لجامعة إستانبول تحتوي على ٢١٨ صفحة (٢٣٠ × ٣١٥ ملم)، منها ١٣٢ صفحة مصوّرة وتختصّ ٢٧ صفحة من المصوّرات على ٥٤ تصميم لمنازل تقع ضمن الحدود الإيرانيّة الحاليّة، في حين اختصّت ١٠٥ صفحات مصوّرة بتصاميم منازل العراق [٢١] (التصوير رقم ١).

ولوحة (مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف) تصوّر البناية التي كانت محلًّا لحضور الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف. وتتضمّن اللوحة بنايةً مركزيّة ـ هي مسجد أو مقام إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف ـ مع بنايتين على جانبَيها أصغر حجمًا منها تحويان المدارس المجاورة للمقام.

وقد تمّ ترسيم البناية الوسطى على شكلّ مسدّس الأضلاع بأحجار برتقاليّة اللون، وفي أعلاها قبّة رمّانيّة الشكل مغلّفة بقرميد ذي أزهار رباعيّة الأوراق. وهذه القبّة الفيروزيّة الموجودة في أعلى هذا المكان المقدّس تمنح زائريها أجواء الهدوء والاطمئنان والروحانيّة. وفي مقابل مدخل هذه البناية ٣ صفوف من المدارج التي عن طريقها يتمّ الدخول إلى البناية، وفي الطبقة العليا هناك عدد من المناور التي تمّ توزيعها على الجوانب المختلفة من البناية.

أَمّا البنايتان الجانبيّتان اللتان يتشابه تصميمهما فتقعان على جانبَي البناية المركزيّة وقد رُسمتا باللون الأزرق المائل إلى الرمادي، ولهما صفّان من الشبابيك، يشاهد في الصفّ الأسفل منها وجود القضبان المشبكة. أَمّا قبّتا هاتين البنايتين فهما أصغر من القبّة الوسطى ويختلفان عنها.

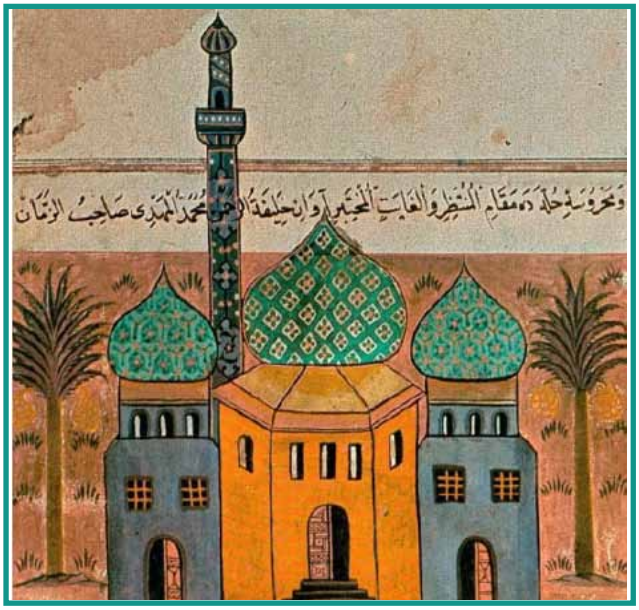

لوحة (مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة الحلّة) القرن العاشر الهجري

مخطوطة بيان منازل سفر العراقَين ـ المكتبة المركزيّة بجامعة إستانبول فهاتان القبّتان تتّصلان بالبنايتين رباعيتي الزوايا بواسطة جذع دائري مغطّى بكاشي خلايا النحل ومركزها مزيّن بالزهور.

وتظهر خلف البناية المركزيّة منارة مكسوّة بالكاشي فيها مئذنة وتاج. وفي خلفيّة اللوحة يوجد فضاء جافّ وصحراوي. ومن أجل إيجاد التقارن وبيان نوع المنطقة أيضًا استفاد الرسّام من شجرتَي نخل على جانبَي العمارات.

وتحتوي اللوحة في أعلاها على كتيبة منقوش فيها العبارة التالية: «محروسة[٢٢] حلّة ده مقام المنتظر والغايت المختبِرا وإنّ خليفة الرحمن محمّد المهديّ صاحب الزمانِ» كتعريف للأبنية الموجودة في الصورة. ومضمون هذه الكتيبة مأخوذ من الزيارة القصيرة المكتوبة على باب مقام حضرة صاحب الزمان في الحلّة.

دراسة العناصر المعماريّة في لوحة (مقام صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف في مدينة الحلّة):

من المحتمل أن يكون مقام إمام الزمان عجل الله فرجه الشريف قد بُني في القرن السادس الهجري؛ لأَنَّ مدينة الحلّة جرى تأسيسها في أواخر القرن الخامس الهجري، ووفقًا لما تذكره بعض المعلومات فإنّ مؤسّس المدارس الواقعة بجانب هذا المقام هو ابن إدريس الذي كانت وفاته في أواخر القرن السادس.

وعلى هذا يكون بناء بناية مسجد صاحب الزمان عجل الله فرجه الشريف وقبّته قد حصل في القرن السادس، ثمّ جاء ابن نما في أوائل القرن السابع فأعاد تعمير المدارس المجاورة له، والأكيد أَنَّ بناء هذا المكان قد شهد تغيّرات وتطوّرات على مرّ القرون.

ويحتمل قويًّا أن تكون بناية مقام إمام الزمان عجل الله فرجه الشريف ثمانيّة الأضلاع، لكنّ الفنّان رسمها بصورة سداسيّة الجوانب؛ وذلك لأَنَّ استخدام الرسم المنظوري

الخارجي تقريبًا كان هو الأُسلوب الشائع في العصر التيموري لترسيم بعض البنايات [٢٣].

وفي هذا النوع من الرسم المنظوري لو أُريد ترسيم بناية مثمّنة الأوجه من الجهة الأماميّة، فإنّ سطحَي الجانبين الذين يقعان بموازاة خطوط رؤية الناظر لا يمكن رؤيتهما تقريباً، ولهذا السبب يحتمل أن يكون الرسّامون قد تركوا ترسيم هذين الوجهين.

ولمّا كان فنّ الرسم الإيراني في العصر التيموري قد شهد تطوّرًا كبيرًا، لذا يمكن مشاهدة آثار انتشار هذا الفنّ بالتدريج في البلدان المجاورة كبلدان السلطنة العثمانيّة والأراضي الهنديّة [٢٤].

ومن هنا يبدو على الظاهر أَنَّ رسّام هذا التصوير أيضًا قد استفاد من هذا الأُسلوب في تصويره لمقام إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

قسم من الصورة رقم ١

مسجد ردّ الشمس (www.safafarrokhi.ir)

يحظى هذا المسجد في مدينة الحلّة بأهمّيته باعتباره أحد الأبنية التاريخيّة الشيعيّة المقدّسة، ومن ناحية ارتباطه بالإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف.

وطراز عمارة المسجد ـ عند بنائه أو بعد إعادة تعميره ـ يشبه طراز العمارة في العصر السلجوقي الذي تكون الأبنية الدينيّة فيه مثمّنة الأضلاع كما في القبّة السلطانيّة [٢٥] (الصورة الثانية).

إنّ الباني الأوّل لهذا المقام هو الشيخ علي الحلاّوي، ومن المحتمل أن يكون هو أو غيره ـ عند بناء أو تعمير البناء ـ يستعينون بمخطّط مسجد ردّ الشمس، لأنّ البناء الأصلي لمسجد ردّ الشمس [٢٦] الذي يتألّف من بناية مثمّنة الأضلاع مع قبّة مخروطيّة بديعة يبلغ ارتفاعها ٢٠ مترًا تقريباً، يرى بعض المحقّقين أَنَّ عمره يعود إلى أوائل القرن السابع الهجري [٢٧].

وعلى هذا، ومع الأخذ بنظر الاعتبار إشارة ابن شهرآشوب (م ٥٨٨ هـ)

إلى هذا المزار، فمن المحتمل قويًّا وجود هذا البناء في القرن السادس الهجري في هذا المكان [٢٨] (الصورة رقم ٣).

ومن جهة أُخرى يجب الالتفات إلى أنّه لمّا كان البناء الأوّل لهذا المقام هو في القرن السادس الميلادي فمن المحتمل أن تكون قبّة هذا المقام أيضًا منذ البداية مخروطيّة الشكل تحت تأثير مسجد ردّ الشمس، وبمرور الزمان تمّ إعادة بنائها وتوسيعها في عدّة مرّات وتغيّر شكلها من شكلها الأوّلي إلى القبّة الرمّانيّة.

أَمّا الفرضيّة الثانية فتقوم على أساس أَنَّ المطراقچي حين تكميل لوحاته قد جعل مخطّط هذا المقام على أساس تصميم القبّة الكبيرة السلطانيّة على شكل مثمّن الأضلاع وجعل القبّة على شكل نصف كرة فيروزيّة واقفة على هذا المثمّن الأضلاع (الصورة رقم ٥)، لأنّ صور المطراقچي وإن كانت نتيجة مشاهداته المباشرة، ولكن لمّا كان تلوينها وإكمال صورها قد تمّ بعد تلك المشاهدات وبعيدًا عن مكان هذه المواقع فاحتمال التدخّل والتغيير فيها ليس ببعيد [٢٩].

قسم من الصورة رقم ١

القبّة السلطانيّة (www.kojaro.com)

وفي هـذه الصـورة ـ كـما في مسـجد ردّ الشـمس ـ هناك منـارة موجودة في الزاوية الشـماليّة الشرقيّة. وارتفاع منارة مسـجد ردّ الشمس هو أقلّ من ارتفاع القبّـة، وزيّنت مقاطع مـن أبدانها وشرفاتها بالنقوش والكتيبـات القرميديّة[٣٠] (الصورة رقم ٦). بينما نرى المنارة في لوحة المطراقچي أعلى من القبّة الفيروزيّة (الصـورة رقم ٧)، ممّـا يذكّرنا بـ (منـارة العبد) أو (منارة مرجـان) حيث يبلغ ارتفاعها أربعين مترًا وتقع في جهة الشـمال الشرقي من الصحن المطهّر، وتعتبر أعلى وأفخم منارة في جميع العتبات المقدّسة العراقيّة [٣١]، ويعود تاريخ بناء هذه المنـارة إلى ما يقارب القرنين قبل قيام الحكم الصفوي. ويحتمل أن يكون الفنّان عند التصميم النهائي متأثّرًا بتصميم (منارة العبد) أيضًا. (الصورة رقم ٦).

الصورة رقم ٦

منارة مسجد ردّ الشمس (www.safafarrokhi.ir)

الصورة رقم ٧

قسم من الصورة رقم ١

الصورة رقم ٨

منارة العبد (www.forums.alkafeel.net)

يوجد في هذه اللوحة إلى جانب مسجد إمام الزمان عجل الله فرجه الشريف بنايتان أصغر حجمًا من المسجد، ويظهر من التحقيقات أنّها أبنية المدارس التي بناها ابن إدريس إلى جانب هذا المقام؛ وذلك لأنّ عادة بناء المدارس إلى جانب الأماكن الدينيّة قد انتشرت منذ القرن الرابع الهجري فما بعده خصوصًا في العهد السلجوقي بجهود الخواجة نظام الملك [٣٢] (الصورة رقم ٩)؛ حيث كانت المساجد ـ في القرون الأُولى بعد ظهور الإسلام ـ تستعمل للتعليم.

ورغم ظهور المدارس المستقلّة في القرون التالية، إلّا أنّه بسبب التعليم الديني في المدارس عادت العلاقة بين المسجد والمدرسة بأشكالٍ مختلفة واتّسع بناء المدارس إلى جوار الأماكن الدينيّة كالمساجد، كما هو الحال في أوّل مدرسة في العالم الإسلامي والتي كانت تعود لحكومة العلويّين في طبرستان حيث بنيت إلى جانب مقبرة ناصر كبير (م ٣٠٤ هـ) الذي كان أحد قادة العلويّين في آمل [٣٣].

والمدارس التي تقام إلى جانب المساجد كانت وظيفتها تعليميّة فقط، بينما

تمارس الأعمال العباديّة في المساجد المجاورة لها.

ولمّا كان المتعارف غالبًا في العمارات من نوع (المسجد ـ المدرسة) هو اختصاص القبّة بأماكن المناجاة (المسجد)، عدا نماذج قليلة في هذا النوع من العمارة يلاحظ فيها عدد من القباب، كمدرسة دودر بمدينة مشهد التي بنيت في العصر التيموري.

الصورة رقم ٩

قسم من الصورة رقم ١

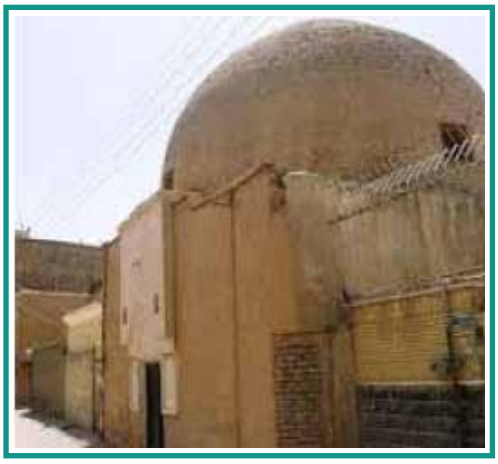

الصورة رقم ١٠

مدرس ابن سينا (www.iranboom.ir)

لـذا فإنّ هذه المدارس لو كانت مبنيّة في العهد السـلجوقي وأنّها منذ البداية كانت ذات قباب، فمن المحتمل أن يكون ذلك تقليدًا لبناء مدرس ابن سينا في مدينة أصفهان الذي لا تزال قبّته موجودة منذ العهد السـلجوقي إلى الآن[٣٤]. أمّـا لو كان الأمر غير ذلك فمـن المحتمل أن تكون هذه القباب قد بنيت خلال مسـيرة التغيـير والتطوّرات التي حصلـت في هذه المجموعة بحيـث إنّها كانت موجـودة في النصـف الأوّل من القـرن العاشر الهجري وفي زمـان المطراقچي. (الصورة رقم ١٠).

نتيجة البحث:

من الأُمور التي يجب على الشيعة القيام بها هو تجليل وتكريم الأماكن ذات الصلة بالوجود المقدّس للإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، ومن تلك المقامات التي يمكن الإشارة إليها: مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة الحلّة.

إنّ بناء المدارس إلى جوار مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة، وإقامة مجموعة من الفقهاء في ذلك المكان يؤشّر اهتمام العلماء بهذا المقام وزيارته ورعايتهم لبنايته والتدريس فيها.

كما أَنَّ هذا المكان المقدّس كان يحظى باهتمام الحكّام كالشاه إسماعيل الصفوي والسلطان سليمان القانوني، والذي يؤيّد ذلك هو قيام المطراقچي رسّام البلاط العثماني في القرن العاشر الهجري برسم لوحة (مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة).

وتشير دراسة مفردات بناية هذا المكان المقدّس كما صوّرته لوحة (مقام الإمام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة) والعوامل المؤثّرة في تشكيل ماهيّته الظاهريّة إلى أَنَّ الفنّان قد استفاد في تصميم لوحته من الفضاءات والزخارف الواقعيّة والموضوعيّة الموجودة في عمارة هذا المقام وبما يتناسب مع موضوع لوحته.

قائمة تصاوير المقال:

الصورة رقم ١: لوحة (مقام صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة الحلّة) القرن العاشر الهجري، مخطوطة (بيان منازل سفر العراقَين) ـ المكتبة المركزيّة بجامعة إستانبول.

الصورة رقم ٣: مسجد ردّ الشمس (www.safafarrokhi.ir).

الصورة رقم ٥: القبّة السلطانيّة (www.kojaro.com).

الصورة رقم ٦: منارة مسجد الشمس (www.safafarrokhi.ir).

الصورة رقم ٨: منارة العبد (www.forums.alkafeel.net).

الصورة رقم ١٠: مدرسة ابن سينا (www.iranboom.ir).

الهوامش

(١) دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة، ص ١٠٨.

(٢) سورة طه ٢٠، الآية ١٢؛ التوراة، سِفر الخروج، ٥، ٣.

(٣) مقدّس و نا مقدّس = المقدّس وغير المقدّس، ص ٢١.

(٤) المنجد في اللغة والأعلام، ص ٦٦٣ ـ ٦٦٤.

(٥) سورة آل عمران ٣، الآية ٩٧.

(٦) المسجد في الإسلام، ص ١٠٨.

(٧) الذاكرة، ص ١٦٠.

(٨) نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر، ص ٢٥٠.

(٩) روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات، ج ٢، ص ٢٧٠.

(١٠) دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة، ج٢، ص ٢٠١ ـ ٢١١.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٥٧.

(١٢) كشف اليقين، ص ٨٠ و ٨٢.

(١٣) موسوعة تاريخ العراق بين احتلالين، ج ٣، ص ٣٢٤ ـ ٣٤١.

(١٤) المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤ و ٢٩.

(١٥) العبقريّ الحِسان في أحوال مولانا صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، ج ٢، ص ٧٧ ـ ٨٧.

(١٦) سيماى حله = سيماء الحلّة، ص ٩٩.

(١٧) تاريخ مقام صاحب العصر والزمان في الحلّة، ص ٢٩ و ٤٩.

(١٨) المسلسلات في الإجازات، ج ٢، ص ١٠٠ ـ ١٠٦.

(١٩) سفرنامه ابن بطوطه = رحلة ابن بطوطة، ص ٢٢١.

(٢٠) المقامات المنسوبة إلى إمام الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، ص ١٤٢. نقلًا عن موقع الحجّ الألكتروني التخصّصي.

(٢١) بيان منازل = بيان المنازل، ص ٧٦.

(٢٢) المحروسة: التي تمّت حراستها، كناية عن الأملاك السلطانيّة. ملك محروسة: عنوان المحدودة والناحية والمدينة التي تكون عاصمة ومقرًّا للسلطنة. موقع دهخدا الإنترنيتي.

(٢٣) فضاهاى معمارى و شهرى در نگارگرى ايرانى (= المساحات المعماريّة والعمرانيّة في فنّ الرسم الإيراني)، ص ٨٣.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ١٣٩.

(٢٥) لمّا كانت العمارة في العالم الإسلامي متأثّرة بالعمارة الإيرانيّة فمن المحتمل أن يكون التصميم الابتدائي للمسجد

يعود إلى العصر السلجوقي؛ لأنّه منذ القرن الرابع وما بعده وظهور عمارة الأبنية البرجيّة في إيران، فربما أمكن القول بأَنَّ أهمّ الفترات التي ازدهرت فيها عمليّة بناء الأبنية المضلّعة هي الفترة السلجوقيّة. المقابر الإسلاميّة/ قاعدة ثقافيّة في شمال غرب إيران، ص١١٣.

ومن هنا فإنّ وقت ذروة الاستفادة من هذا النوع من الأبنية هي فترة القرون الوسطى الإسلاميّة. (تأمّلات حول هويّة المقبرتَين ثمانيّتَي الأضلاع ذَواتَي قبّة ـ كشيت ونسك ـ التابعتَين لقضاء گلباف في محافظة كرمان)، ص ١٢٤.

(٢٦) يقع مسجد ردّ الشمس في شمال مدينة الحلّة، وهو محلّ وقوع معجزة رجوع الشمس بعد غروبها من أجل الإمام عليّ عليه السلام. وقد ذكرت المصادر الروائيّة الشيعيّة حصول معجزة ردّ الشمس للإمام عليّ عليه السلام مرّتين.

ولا تتوفّر لدينا معلومات دقيقة عن تاريخ بناء هذا المزار، ومن المحتمل أن يكون ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) هو أوّل مَن أشار إلى مشهد ردّ الشمس في الحلّة، وعلاقته بالمعجزة الثانية لردّ الشمس. (مناقب آل أَبي طالب، ج ٢، ص ٣٥٥).

(٢٧) القباب المخروطيّة في العراق، ص ٤٨.

(٢٨) مناقب آل أَبي طالب، ج ٢، ص ٣٥٥.

(٢٩) بيان المنازل، ص ٧٧.

(٣٠) بحث حول مدى صحّة أماكن المعاجز المنسوبة إلى الإمام عليّ عليه السلام في العراق، مجلّة تاريخ الإسلام، العدد ٣٧، ص ٣٩.

(٣١) تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام، ص ١٧٨.

(٣٢) مدارس النظاميّة وآثارها العلميّة والاجتماعيّة بالفارسيّة.

(٣٣) تاريخ مدارس إيران منذ العهد القديم إلى تأسيس دار الفنون بالفارسيّة.

(٣٤) موسوعة تاريخ عمارة المدن الإيرانيّة.

المصادر والمراجع

١. سفرنامه ابن بطوطه (= رحلة ابن بطوطة)؛ محمّد بن عبد الله ابن بطوطة، ترجمة محمّد علي موحّد؛ طهران ـ آگاه، ١٣٧٠ ش.

٢. مناقب آل أبي طالب؛ محمّد علي ابن شهرآشوب المازندراني، تحقيق يوسف البقاعي؛ بيروت ـ دار الأضواء، ١٤١٢.

٣. مقدّس و نامقدّس (= المقدّس وغير المقدّس)؛ ميرجا اليادە، ترجمة: نصر الله زنگوئي؛ طهران ـ سروش، ١٣٧٥ ش.

٤. سيماى حله (= سيماء الحلّة)؛ محمّد حسن أماني، طهران ـ منظّمة الإعلام الإسلامي، ١٣٧٥ ش.

٥. دائرة المعارف الإسلاميّة الشيعيّة؛ حسن الأمين، بيروت ـ دار التعارف للمطبوعات، ٢٠٠١ م.

٦. القباب المخروطيّة في العراق؛ عطّار الحديثي، وهناء عبد الخالق؛ بغداد ـ مديريّة الآثار العامّة، ١٩٧٤م.

٧. كشف اليقين؛ أَبو منصور، جمال الدين الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي، طهران ـ وزارة الإرشاد.

٨. تاريخ مقام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في الحلّة؛ أحمد علي مجيد الحلي، قم، ١٤٢٦.

٩. بررسى اعتبار معجزه‌گاه‌هاى منسوب به إمام علي عليه السلام (= بحث حول مدى صحّة أماكن المعاجز المنسوبة إلى الإمام علي عليه السلام في العراق)؛ أحمد خامه يار، المجلّة الفصليّة ـ تاريخ الإسلام في مرآة التحقيق، السنة ١١ (١٣٩٣)، العدد ٣٧، ص ٣١ ـ ٥٠.

١٠. روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات؛ محمّد باقر بن زين العابدين الخوانساري، قم ـ أسد الله إسماعيليان، ١٣٩٢ ش.

١١. نخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر؛ محمّد بن أَبي طالب الدمشقي، بيروت، ١٩٨٨ م / ١٤٠٨ هـ.

١٢. تأملى در باب هويت دو آرامگاه هشت ضلعى گنبد دار كشيت و نسك، ناحية گلباف كرمان (= تأمّلات حول هويّة مقبرتَي كشيت ونسك ثمانيّة الأضلاع ذوات القِباب / ناحية گلباف في محافظة كرمان)؛ محمّد إبراهيم زارعي،

يـد الله حيـدري بابا كمال، مجيـد منتظر ظهـوري؛ المجلّـة الفصليّـة القطـب العلمـي للعمارة الإسـلاميّة، العدد ٨، السنة الثالثة، ١٣٩٤ ش.

١٣. تاريخ مدارس ايران از عهد باسـتان تا تأسـيس دار الفنون (= تاريخ مدارس إيران منذ العهد القديم إلى تأسيس دار الفنون)؛ حسين سلطان زادة، طهران ـ نگاه، ١٣٦٥ ش.

١٤. فضاهاى معمارى و شهرى در نگارگرى ايرانى (= المساحات المعماريّة والعمرانيّة في فنّ الرسـم الإيراني)؛ حسين سلطان زادة طهران ـ چهار طاق، ١٣٨٧ ش.

١٥. الذاكرة؛ سـلمان هادي طعمة، بغداد ـ مطبعة العاني، ١٩٨٨ م.

١٦. موسـوعة تاريخ العراق بين احتلالين؛ عبّـاس العـزّاوي، بغـداد، ١٣٥٣ ـ ١٣٧٦ ش / ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦ م، قـم ـ أوفسـيت، ١٣٦٩ ش.

١٧. مقابـر اسـلامى، پايـگاه فرهنگـى در شمال غرب ايران (= المقابر الإسلاميّة/ قاعـدة ثقافيّة في شـمال غـرب إيران)؛ محمّد رضا كارگر، أُطروحة ماجسـتير غير منشـورة في علم التاريخ، طهران ـ جامعة إعداد المدرّسين، ١٣٧٣ ش.

١٨. مـدارس نظاميـه و تأثـيرات علمى و اجتماعـى آنهـا (= مـدارس النظاميّة وآثارهـا العلميّـة والاجتماعيّـة)؛ نور الله كسـائي، طهـران ـ أمـير كبـير، ١٣٧٤ ش.

١٩. تاريـخ كربـلا و حائـر حسـين عليه السلام (= تاريـخ كربـلاء وحائـر الحسـين عليه السلام)؛ عبـد الجـواد الكليـدار، ترجمـة محمّـد صـدر هاشـمي؛ أصفهـان ـ ثقفـي، ١٣٧٧ ش.

٢٠. المسلسـلات في الإجـازات؛ السـيّد محمود المرعشي النجفي، قم ـ مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي / المخزن العالمـي للمخطوطـات الإسـلاميّة، ١٤١٦.

٢١. بيان منـازل (= بيان المنـازل)؛ نصوح المطراقچـي، ترجمـة: وتعليـق رحيـم رئيـس نيا؛ طهـران ـ مؤسّسـة التراث الثقـافي الوطنيّـة، معاونيّـة الإعـلام والتعليـم، ١٣٧٩ ش.

٢٢. المنجـد في اللغـة والأعـلام؛ لويـس معلوف، بيروت ـ دار المشرق، ط ٣٤، د.ت.

٢٣. دانشنامه تاريخ معمارى ايران شهر (= موسـوعة تاريخ عمارة المـدن الإيرانيّة

(مؤسّسة التراث الثقافي والسياحي في إيران.

٢٤. العبقريّ الحِسان في أحوال مولانا صاحب الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ الشيخ علي أكبر النهاوندي، دون تاريخ.

٢٥. المسجد في الإسلام؛ شيخ طه الولي، بيروت ـ دار العلم للملايين، ١٤٠٩.

*** مصادر الإنترنيت:**

1. www.forums.alkafeel.net
2. www.iranboom.ir
3. www.jasjoo.com
4. www.karzakan.info/karzakan/index.php/about-karzakan/maalem/masajed
5. www.kojaro.com
6. www.news.hajj.ir
7. www.safafarrokhi.ir